الدَّهَائيَّات

في كتاب «لُطف التدبير»

د. اشراق سامي عبد النبي(*)

الملخص

تتناول الدراسة مفهوم الدهاء في كتاب «لُطف التدبير»، للعلامة الخطيب الإسكافي (ت ٤٢١هـ) الذي حقَّقَه أحمد عبد الباقي، ويَعرضُ عبر مَجموعةٍ من الأخبارِ المُنتقاةِ مفهومَ الدَّهاءِ بنحوٍ دقيقٍ، مُوضحًا أنَّهُ ليسَ مُجرّدَ حِيلة أو خداع، بلْ هو نوعٌ من الذَّكاءِ والفِطنةِ في التَّعامُلِ مع الأمور بطريقةٍ غير مُباشرةٍ ولكنَّها حكيمةٌ وفعّالة. يشيرُ الكتابُ إلى أنّ الدهاءَ يمكنُ أنْ يَكونَ وسيلةً لتحقيقِ أهدافٍ نبيلةٍ شرطَ أنْ يَكونَ في إطار من الصِّدقِ والمَشروعيّة، إذ يعرض الإسكافيُّ عدداً من القِصَص والأمثالِ والحِكَم التي تَهدفُ إلى تعليمِ كيفيّة التَّصرفِ بحكمةٍ وتدبيرِ الأمور بحذر. يركزُ على أهميّة التفكّرِ في العَواقِبِ وحُسنِ التّخطيطِ، ويَستعينُ في ذلكَ بجملةٍ طيبةٍ من الأخبارِ التي تَحملُ العِبرَ والدُّروسَ المُستفادَة.

(*) جامعة البصرة - مركز دراسات البصرة والخليج العربي.

الكتــابُ يَحتوي علــى قِصصٍ مُتنوّعة، بعضُها من حياةِ الصَّحابــةِ والتّابعين وبعضُها من حياة القــادةِ والمُلوكِ والأشــخاصِ الذين مرّوا بتجاربَ في التَّدبير، على ســبيلِ المثــال، ذكَرَ في الكتابِ بعــضَ الأخبار التي تُوضحُ كيفيّــة تَدبيرِ الأزماتِ والمَواقــفِ التــي تَحتاجُ إلى حُســنِ تَصرّف. وقد اســتخدمَ الإســكافيُّ هذهِ الأخبــارَ لتَوضيــحِ أنّ التَّدبيــرَ ليسَ قرارًا لحظيًّا مُجــرداً، بلْ هو عمليّةٌ مســتمرّة تَتَطلّــبُ التَّفكّــرَ والاستشــارةَ. من بينِ الأخبــارِ التي يَتطرَّقُ إليهــا هناك بعضُ القِصَص التــي تُمثّل نوعًا من الدَّهاء في اســتخدامِ الحِكمةِ أو القُدرةِ على تَحقيقِ الأهدافِ دونَ التَســبّبِ في مشكلاتٍ.

الكلمات المفتاحية : الدهائيات، لطف التدبير، الخطيب الإسكافي، الخبر، السرد القديم

الدراسة

الدَّهَائيَّــات[1]، نمــطٌ في تأليف الأخبَــار وجمعِها يتّخذُ من السّياسة وصُنَّاعِها مادّة للكِتَابَة. ويركّز على الأخبَار التــي تنقل حكاياتِ الحِنكةِ والدّهاء. ولم تعرفْ الدَّهَائيَّاتُ حينما كانتْ الدّولةُ العربيّة تدار سِيَاســيّا وفقَ صيغة معروفة وواضحة بين الحاكــم والمَحكــوم لا يَحتــاج معهــا النّاس إلى وضع قوانين وأطر أخلَاقيّة لبيان وتقنين مثل تلك العلاقــات. فالخَليفَة يُفتــرضُ أنْ يحكم بما تقره الشّــريعة الإسلَامِيّة وبما يخدم الدّين أولا، والبلاد والعبــاد ثانيــاً، والنّــاس يدركون هذه المســألة ويثقون بمن يديــر أمورَهم ثقةً نابعة من منهجِه الدّينيّ ومَدى التّزامِه بقيمٍ إسلَامِيّة مَعرِفَة. وكلما ابتَعدنــا عن عهدِ النّبوّة والخِلافةِ الرّاشــديّة بدأتْ هــذه الصّيغــة بين الحاكــم والمحكــوم تضعف وتتــوارى وتكون مجالًا للشــكّ والتّســاؤل، الأمر الــذي مهّد لظهور شــكل أبداعيّ يحــاول تقصّي السّــلوك السِيَاسيّ ورســم حدوده بوصفِه فنّاً أو شــكلًا من أشــكال العلوم الإنسَــانيّة التي تحتاج إلى الدّراســة والبحــث والتّقييــم، إذ «يدخل علم السّياســة حســب تصنيف العلوم عند المُسلِمينَ في باب العلوم العملية والمحتاج إلى هذه العلوم هم أهلُ السّــلطةِ أولًا ثمّ سائر النّاس لأنَّ الإنسانَ مدنيٌّ بالطّبعِ ويجب عليه اختيار المدينة الفاضلة مســكنًا والهجرة عن الفاسدةِ، ويأتي هذا التّوجّه ضمــن المَجــرى الذي اتَّخَــذه علم السّياســة في العصور الإســلَامِيّة متجاوزًا حدّ الاختصاص إلى قدر معين من الشّمو»[2].

إن الاهتمام بالسّياسة والمشتغلين بها لن يكونَ سهلًا ميســورا، ولن يتمكن المُؤَلّف من أن يشير صراحة إلــى الطّريق الأصوب والسّــلوك الأفضل للملك أو السّلطان. كما أنَّهُ ليس من منطق العقلاء نقد تصرفات السّــلطة الحاكمــة أو التّعليق عليها بمُؤَلّفاتٍ يتداولُها النّاس ويقرأونها. وإلا سيكونُ هذا العملُ من قبيلِ التّحريض وتأليبِ العَامّة على الخَليفَــة؛ فليس من باب الصّدفــة أن تنقل أخبَار ذوي الملــك والسّــلطان بهيئــةِ قصــصٍ يتناقلُها الرّواة تحملُ عبرة وإرشادًا يُحاول الكاتب جعلها مَوضُوعيــة تماما، فليــس لصوته أثــرٌ في أدراج

(١) خلاصات في السّيَاسة والفكر السّيَاسي ، هادي العلوي، دار المدى للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠٠٤، ص١٥٩.

(٢) مدخل الى السّــيموطيقا، سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠١، ص٤١.

أيّ تعليــق من عنده. فواجبُــهُ التّأليفيُّ يتمثلُ في الأمانة وحدها في ما ينقلُ ويكتب.

إذا كانــت الدَّهَائيَّــات تــروي أخبَــارا مُختــارة ومُنتقاة لملوكٍ وقادةٍ شــهروا بسِياساتهم الذكيّة، فإنها كما ترى الدّراسة نصوصٌ تحمل دهاءً أبعدَ مــن هذا الذي ترويه بمَوضُوعية تامّة، دهاء يَكمنُ فيما يُريد النّصُّ قولَه في مســتواه العَميق ويمكنُ تَصنيــف المَعنَى الذي تُعبر عنه الأخبَار على وفق الشّكل الآتي:

١- المَعنَــى المباشــر القريــب: ويتمثلُ في أن الخَبَر يَحملُ حكايــةً تَروي حادثةً ينقلُها التّاريخ فيعبّــر عنهــا بصِفتِهــا أحاديــثُ تُــروى للمُتعة والاعتبار، وتُسرد في المَجالس والليالي والأسمار.

٢- مَعنًــى أبعدُ قليلًا: ويخــصّ الخَبَر من حيثُ النّفعُ والفائــدة لطبقة بعينها. فهــو يذكر كُلّ ما يتيــح للسّــلطان التّدبر وأخذ العبرة والاســتفادة مــن دروس وتجاربَ مرَّ بها آخرون؛ وتجعلُ هذهِ الفائدة الدّهاءَ الوســيلةَ المتبعة لتحقيق المآرب. وهذا المَعنَى هو الذي أشرنا إليه فيما سبق بثيمة (البقاء للأدهى) تلكَ الثّيمة التي وجدت في أخبَار الكتاب كلها، فكانــت بمثابةِ الميزان الدّقيق الذي يقاس عليه الخَبَر.

٣- مَعنًــى المَعنَى: أنَّهُ المَجالُ الخاصّ بالتّأويلِ ويضــمُّ الخطوط الحُمرَ التي حاولَ مُؤَلّف الكِتاب إضمارَها في نســقٍ عميق يُمكنُ الوصولَ إليه من قراءةِ مَغــزَى النّصّ قراءةً ســيميائيَّة تفتح آفاقَ الرّؤيةِ والتّأويل. بقي أن نشــيرُ إلــى أنّ مثلَ هذا التّأويلِ لــن يكونَ مفتوحًا أو مطلقًــا يَعتمدُ على إشــاراتٍ يصنّفُها المُتَلقّي ويُفسّــرُ إحالاتها دون ضوابط؛ فنحن ندركُ أنّ ثمة نظامًا دقيقًا يؤسّسُ الهيكلَ العَامّ للنــصّ ويقوم على وحداتٍ تُهندس شكلَه وتؤثر في محتواه، وهو يمثّلُ الضّابط الذي يحدّد التّأويل.

وتَتَحــدَّد هذه المُســتويات الثّلاثــة للمَعنَى في مَفهــومِ التّواصــل، يقــول لوتمان أنَّــهُ عندما يتم اتصال بين شخصين تنقسم الرّسالة إلى جزءين في التّحليل السّيموطيقيّ. جزء من الرّسالة يكون مُشــتركاً بين الشّــخصين وهذا الجُزء هو الشّفرة المُشــتَركة بينَهما، أما الجُــزء الثّاني هو العُنصر الهام في الرّســالة لأنَّ الجزءَ الأول بما أنَّهُ مُشترك بيــن الاثنين فلا يوصل شــيئًا ولا تضافُ معلومة جديدة عبره.

تعتمــد الكتــب التــي اتفقنــا علــى تســميتها (الدَّهَائيَّــات) على رســالة يُكوّنُها خزيــنٌ ثقافيٌ مشــترك يســمح بالتّواصل والتّوافــق بين طرَفيْ الرّســالة عبــر نقــلِ التّجربــة وتعميــم المَغــزى والمَعنَــى اللذين تحملُهما تلــكَ التّجربة مِمَّا يوفّر درجةً أولى من الفَهم.

وتَحسُن الإشارة إلى وجودِ أخبَارٍ تَحملُ الحكاياتِ ذاتَهــا تتكــرّرُ في أكثرَ مــن كتاب، فعلى ســبيل المِثال تُوجــد في كِتَــاب «لُطفِ التّدبيــرِ» أخبَارٌ نُقلتْ في كتاب (عُيون الأخبَار)، مِثلما نجدُ أخبَارًا فــي الأغاني تَتكــرّرُ في كتبِ الجاحــظ. لكنَّ هذا التّكــرار لا يَعني أنَّها تظلُّ حاملــةً لدلالةٍ واحدة، فلِكُلِّ كتابٍ ســياقُه الخَاصّ، ونســقُه الذي ينتقي الكاتــب على أساسِــه الأخبَــارَ ويُوظّفهــا لخدمةِ دلالةٍ مُعينة (فالمُخيلة إذ تُعيد إخراجَ الحدث من زمانيّته، وبالتالي تحرّرهُ من جهتِه الماضويّة إنَّمَا

تعيدُ تقديمَه من خلال تَنظيم آخرَ مُباينٍ تَمامًا[٣] فالخَبَـر بمـا يضمُّ من حكايـاتٍ غالبًا مـا يُنتقى لعبرةٍ وعِظَةٍ يريدُ الرّاوي إيضاحَها بأسـلوبٍ غير مباشـر، فيمنحُه السّـياق الذي يضمّه بُعدًا دِلَاليّا جديدًا.

تُمثـلُ الدَّهَائيَّـات مَنهَجًـا في الكِتَابَـة ظَهرتْ في ظروفٍ ومُلابسـاتٍ معيّنة ويُعـدّ انتماءُ كِتَاب «لُطـفِ التّدبيـرِ» إلى هـذا الشّـكل فـي الكِتَابَة مفصـلًا سـيميائيًّا يمنـح الكتـاب وجـودًا قيميًا مؤسّسًـا بدلالة الثّقافة التي تتبناهـا الدَّهَائيَّات. (إنَّ الإنسـانَ يشـكل مع محيطه نسيجا متشابكًا من العلاقات وهـذه العلاقات مبنيـة على أنظمةٍ مُكوّنة من علاماتٍ أي أنظمة سـيموطيقيّة فنحنُ نتفاعلُ مع الآخرين ومع الطّبيعة عبر علامات)[٤]. يمكنُ ترجمـة العلامات الدّالة فـي كِتَاب «لُطفِ التّدبيرِ» الى مناطق دِلَاليّة لِكُلٍّ منها مَعنَى وفكرة مثل الاقتراح التّالي:

أولًا تفوّق الدّاهية الخيّر وتَراجُع الشّرير

يفتَتحُ المُؤَلّف تَصنيفَه للكِتاب ببابٍ اسـماه (أوائلُ ما يَحتَاجُ المُلـوكُ إلى مَعرفَتِهِ) مُقرًّا بذلك بأهمّ لوازم القيادة والسّلطة التي لا يَستَغني عنها مَن يُريدُ تثبيتَ مُلكِهِ وسُـلطانِه والنّجاحَ في حُكمِ شَعبِهِ فحينَ يُشيرُ هذا البابُ إلى أنَّ ثمّةَ ما يَحتاجُ المُلـوكُ إلـى مَعرفَتِهِ فإنّما هو يُحيلُ إلى مسـألة المَعرِفَة بوَصفِها الأسـاسَ الصّحيـح الذي يَبنى عليه العقلُ الإنسَـانيّ فرضيّاتِه؛ فما نفع سرد كُلّ هذه الأخبَار والحكايات التي تخبر عن سلوك ملوك قادة وتجاربهم في زمان ومكان ما. أليسـت هي مَعرِفَة تسمح لِكُلّ صاحب لبٍّ يَسمعُها أو يقرؤها بأنْ يَضـعَ الأمورَ في نصابِها الصّحيح كما يُقال. فإذا أدركنا إشـارةَ المُؤَلّف إلى المَعرِفَة بشـكلِها العَامّ وهي تَقصّي الحَقائق وفَهمِها وتحويلِها إلى خبرةٍ شَخصيَّة مفيدة ومنتجة تنعكسُ في سلوكِ الإنسـانِ وفي ثقافتِه وشـخصيّته العَامّة، متيحةً له قدرات خاصّة تمكّنه من التّفاعل مع الأوسـاط المحيطة به. . إذا أدركنا هذه الإشـارة بشكلٍ عام فهُناكَ ثَمّة تَخصيـصٌ للمَعرِفَة أي تخصيصٌ لما يَجـب معرفتُه، لأنَّـكَ إنْ كنتَ تعلـمُ فأنتَ الأقوى لاسـيَّما إذا امتلكتَ القـدرة والاسـتراتيجية التي تُمكّنُكَ من الاستخدام الصّحيح للمَعرِفَة وتحويلها فيما بعد إلى تدبير.

لقد حاول الباب الأول من كِتَاب «لُطفِ التّدبيرِ» أن يوجز نظريا الأسس التي ينبغي للملك والقائد معرفتهـا أولا، وتطبيق مـا يصلح منه لـه ثانيا. تلك الأسـس التـي تفرعـت منها مجمـل الأخبَار فـي الكتاب. ونوع هذا البـاب طريقته في عرض (مـا ينبغي على الملـك معرفته) ما بيـن الأقوال المأثـورة والخَبَـر والوَصَايـا. ويُمكـنُ تلخيصُ الفكرةِ الرّئيسـةِ فيما أرادَ المُؤَلّف طرحه في هذه الأقوال والوصايا بالآتي:

النُّبـل (الخَيـر) أو على الأقل صورتُـه في أذهانِ النّاس) [٥].

(٣) نقـد الشر المحض، مطاع صفدي، دار الانماء العربي، بيروت، ص٤١.

(٤) مدخل الى السّيموطيقا، ص ١٢.

(٥) لطـف التدبير، الخطيب الاسـكافي، حققه وعلق عليه احمـد عبـد الباقـي، دار الكتـب العلمية، بـيروت لبنان، ١٩٦٤. ينقصه رقم صفحة.

«يقــالُ إنّ المأمون جمعَ يَومًــا ولده فقالَ: يا بنيَّ ليَعلــمْ الكبيرُ منكــم أنَّهُ إنَّمَا عظُم قــدرهُ بصغارٍ عَظَّموه؛ وقويتْ قُوتُه بضعافٍ أطاعوه، وشــرُفتْ منزلتُــه بعــوامَّ اتَّضعوا له. فــلا يَدعوَنَّــهُ تفخيمُ المُفَخِّمُ منهــم إياه إلى تَصغيــره، وتعزيزه أمرهُ إلــى تذليلِهِ. ولا يســتأثرَنَّ بفائدةٍ ورفقٍ دونَه. ولا يُولعَنَّ بتَســميته عبدا كما سَــمَّتْ الأعاجمُ بل وليًّا وأخا، فإنَّ الشّــيءَ الذي قوامُهُ من أشياءَ خسيسةٍ ومَعــانٍ مَذمومة هو أيضًا خســيسٌ مذموم. وكل امرئ من أولئك جزءٌ من عدّة أجزائه. وعماد أعمدة أمره. فــإذا انحَلَّتْ أجــزاؤه وزالــتْ دعائمُه، مالَ العِمــادُ وتَهــدَّم الكُلُّ وقد قيلَ إن مــن مَلَكَ أحرارًا طائعين كان أشــرفَ ممَّن مَلَكَ عَبيدًا مُستكرهين. واعلموا أنَّ قلوبَ الرّعية خزائنُ مُلكِها، فما أودعها فليَعلمْ أنَّهُ فيها)[٦].

يشــكل النّبــل فــي الأخــلاق أساسًــا هاماً في شَــخصيَّة المَلِك والقائد ذلك أنَّــهُ صاحب الرّعيّة ومالك أمرِهم؛ فإنْ كانَ فاسدًا مُفسدًا قليلَ المروءة قلَّ حــبُّ النّاسِ ووفاؤُهم لهُ وقَلَّــتْ ثقتُهم به مِمَّا يَجعلُ التّعاملَ معُهم أصعبَ في شــتَّى المجالاتِ فأساسُ الإقناع في شَخصيَّة المَلِك أو القائِد تَتمثَّلُ في أنَّهُ يرســم صورته في أذهــانِ النّاسِ بطريقةٍ تُمكّنُه إلى حدّ بعيدٍ من القُدرةِ على كَسبِ مَودَّتِهم واحترامِهم ثُمَّ ثقتهم.

هكذا يرى السّــياق في كِتَاب «لُطفِ التّدبيرِ» أنّ الملــكَ العادل المُتواضعَ إنَّمَا هــو المَلكُ الحقيقيّ أو الخَليفَة المؤيد بالتّوفيق والرّضا؛ وهو المُرشّح لتحقيــقِ عالمٍ قِيَمــيّ مُتميز يَنتصِــرُ لقيم الخير والحــق والنّبــل الذي يــرى الكتاب أنَّــهُ لا بدَّ من تَوفّرِهِ في شَخصيَّة القائد.

ولعــلَّ القولَ المَأثور عن أحدِ أربابِ السّياســةِ الذي تَحوَّل إلى رأيٍ يَســتعيره بعضُ الملوك في سياســة الرّعية وهو: «وقعَ في كتابِ انوشــروانَ: احســمْ عنهم الأســبابَ التــي تبعــثُ قلوبَهم على مَعصِيَتِك تكنْ قــادةُ أبدانِهم طاعتك»[٧]. لعلّ في هــذا القــول ما يؤكد وصيــة المأمــون لولده. في أنّ قلــوبَ الرّعية خزائنُ مُلكها. فالنُّبلُ والأخلاقُ العاليةُ في التّعاملِ مع الرّعيّة ليســتْ فقط واجبًا دينيًّا تؤسّــس له الشّرائع وليســتْ واجبا أخلَاقيّا تؤكدُ عليه كُلُّ الأعرافِ الإنسَــانيّة، إنَّمَا هو وسيلة من وســائل التّقرب إلى النّاس وكسب إخلاصِهم. فعَلَــى صاحبِ السّــلطةِ أنْ يُدركَ بدقّــة أنَّهُ بقدرِ مــا يُعطي من مُــروءةٍ وحُســنِ أخــلاقٍ وتَواضع ســيأخذُ من الرّعيّة أضعافًا مُضاعَفة من المُؤازَرَة والإخلاص. وهكذا يَرى كِتَــاب «لُطفِ التّدبيرِ»أنّ صاحــبّ السّــلطة مطالبٌ دائمــا بحُســن الخُلُق ومُطالــب بــأنْ يُمثلَ قيــمَ الخير والحــقّ لأنَّهُ في النّهاية محتاجٌ الى تلك الرّعية.

وفــي الأخبَــار المنقولــة فــي لُطــف التّدبيرِ ما يؤكــد هذه الفكــرة فهو يجعل من ميــزة أخلَاقيّة معينة عن صاحب السّــلطة مجــالًا للمَدح والثناء؛ ولكــن بطريقتِه غير المباشــرة طبعًا. فمثلًا حينَ أرادَ أنْ يذكرَ ســمةَ العِفّة فــي التّعاملِ مع أموالِ المُســلِمينَ نقلَ لنا خَبَرا يرسمُ لنا صورةَ الخَليفَة الرّاعي للنّاس الذي يَشــعرُ بِهم ويُحاولُ أنْ يُوفّر

(٦) لطف التدبير:ص ١١.

(٧) المصدر نُفسه: ص ١٢.

لحياتِهـم كُلّ ما يُمكن توفيـره وإن كان بطريقة النّقـل المعتادة «المَوضُوعيـة/ الحيادية التّامة» فلا تعليـق ولا امتداحَ لسـلوكٍ ولا ذمَّ لآخرَ، فقط الحـادث كمـا حصل. يقـول الخَبَـر: «ورفع إلى انوشـروانَ أنَّ عامـلَ الأهواز جَبَى فضـلَ ثمانيةِ آلافِ درهمٍ مِمَّـا لا يَلزمُ النّاس، وإنّ ذلك كان في بيـتِ المال، فوقَّعَ بـردّ المالِ على القومِ بأسـرهِ، فـإنّ المَلـك إذا عَمَرَ بيـوتَ أموالِه بمـا يأخذُ من رعيّتِه، كان كمَنْ عَمَرَ سـطحَ بيتـه بما اقتلعَ من قواعدِ بُنيانِه»[٨].

والتوقيـع هنـا هو مـا كان يكتبـه الملوك من هوامش وتعليقات على ما يُعرض عليهم من أمور النّـاس؛ وبهذا يكـونُ تعليقُ انوشـروانَ بإرجاع المال مَحمُودا في السّـياق فهو تَصـرُّفٌ ينمُّ عن عميق مَحبّةِ الملك لشـعبهِ وحرصِـه عليهم الأمر الذي يَستدعي الاحترامَ والتّبجيل لمثل هذا الملك. فالحاكـمُ علـى ذلك عليـه أنْ يَتَّصـفَ بجملةٍ من الصّفـاتِ المَقبولـةِ أو على نَحـو أدقّ المَحمُودة فـي مِيزان القِيـمِ الأخلَاقيّة. فلا بدّ مـن أنْ يَتمتَّعَ بشَـخصيَّة أساسُها العدلُ وحبّ النّاس والتّواضُع لهم؛ فـانْ افتقرَ إلـى مثلِ هذه الخِـلالِ عليه في الأقـل أنْ يتظاهـرَ بها فيُراقبُ سـلوكه مع رعيّته لأنَّهم أسـاسُ مُلكِه وسلطانِه وعليهم تقومُ دولته؛ فـإنْ خذلوه خسـرَ فـي النّهاية ما يحسـبُه مآثرَ خالدة لن تبـورَ ولن تنتهي. «أذن اعلمْ أيُّها المَلك أنَّكَ مقرونٌ بسلوكِكَ فإن أحسنتَ أُحسِنَ إليكَ وإنْ أسـأتَ تكونُ قد فرطتَ بتأييـدِ النّاس ونُصرتهم فصِرتَ الأقربَ إلى الخسارة».

هذا ما أرادَ المُؤَلّفُ تثبيته أساسًا قبل أنْ يفتتحَ لنا الأخبَار سـاردًا ومُذكّرا؛ ففـي البدءِ على المَلكِ أو الحاكِم أنْ يَعلـمَ أنّ عِمادَ مُلكِه همُ النّاس وهم رعيّتُه فـإنْ أنصفَهم أنصفوه وإنْ رفعَهم رفعوه. فإنْ تَذكَّرَ فقـط قدرتَه عليهم يكونُ قد وضعَ عن نفسـه أهمَّ صفةٍ في الحاكِم وهـي تمثيلُه لجانبِ الخير وتحقيقُه للعدل. فالدَّاهيةُ الخيّر في أخبَار لُطف التّدبيرِ هـو دائمًا الصّورة الزاهية لصاحبِ السّلطة، والشكلُ الحَسَنُ لها.

ثانياً_ المَعرِفَة

تعد المَعرِفَة من أهمّ الأسس التي يشترط السّياق العَـامّ لِكتَاب «لُطـفِ التّدبيرِ» وجودهـا عند كُلّ مـن يملك سـلطانًا. جاء في أحـد الأخبَار: «وكان الحَجَّاجُ يستبطئ المُهلَّب في حربِ اللاذقيّة وهو مُجتهدٌ، فكتبَ إليهِ المُهلّب: إنّ من البلاءِ أنْ يَكونَ الرّأيُ لمنْ يَملكه لا لمن يبصره »[٩].

فحين تعرف شـيئاً ما فإن المَعرِفَة سـتقودك إلـى اختيار القرار الصّحيح في الوقت المناسـب لأنك تبصرُ الأشـياءَ بوضوحٍ وسـتكونُ أقربَ إلى الحقيقـة. إنّ المَعرِفَـة هي الصّفـة التي افترضَ المُؤَلّف وجودها عنـد كُلّ حاكم حَصيف، فإذا لم تكـنْ موجودة فعليه أنْ يَسـعى نحوَهـا بُمثابَرة «سألَ رجلٌ بعضَ حكماء بني أميّة: ما كان سببُ زوال نعمتِكم فقالَ وكانَ أولَ زوالِ ملكِنا اسـتتارُ

(٨) لطف التدبير:ص ١٢.

(٩) لطف التدبير:ص ١٣.

الأخبَار عنا»[١٠].

وتقود المَعرِفَة بلا شك إلى التّدبير فحين تعرف عـدوَّكَ أكثرَ تكونُ قادرا على تَحديد نقاط ضعفِهِ واسـتعمالها ضده باختيـارِ الطّريقةِ المُناسـبة للتَّعامل مـع نقاطِ الضّعفِ تلك. فـإذا ما كنت لا تدري أو غيرَ قادر علـى الوصولِ إلى المَعلومات والأخبَار التي تُسـاعدك على اتخاذِ التّدبير اللازم فانَّكَ أيها الملك، بحسـبِ لُطف التّدبيرِ، سـتَفقدُ مُلكَكَ وسـلطتكَ من حيثُ لا تعلـمُ وفي خبر آخر «وقال المَنصـور يومًا: ما كان أحوَجَني أنْ يَكونَ علـى بابـي أربعةُ نفـرٍ لا يكونُ علـى بابي أعفّ منهـم قيل: يـا أميـرَ المُؤمنين مَن هـم؟ قال هم أركانُ المُلـك لا يصلحُ المُلك إلا بِهم كما السّـرير لا يصلحُ إلا بأربـعِ قوائم إنْ نَقصَتْ قائمةٌ واحدةٌ وَهَى، أمّا أحدُهم فقاضٍ. . . الآخر صاحبُ شرطة. . . الثّالـث صاحبُ خَـراج، قيلَ: من الرّابع يا أميرَ المُؤمنين؟ قال صاحبُ بَريدٍ يُخبرُ عن هؤلاءِ على الصّحة»[١١]. لا يُمكن، إذن، التّعامل مع متطلباتِ السّـلطةِ والحكـمِ دونَ تَدبيـر ولا يُمكن تحقيق التّدبير هذا دونَ مَعرِفَةٍ تُسـنده وتؤشّـرُ طريقة الدّهاء أو كما أطلق عليه التّدبير.

بعد المَعرِفَة سـتبدأ لعبـة التّدبير، وهو الثّيمة الأساسية التي يتّخذُها الكتاب محورًا له. والتّدبير عنـد العرب خلّـةٌ تقترنُ بسـماتِ النّبـل والخير وهـو مُصطَلح يقتـرنُ في التّـراثِ غالبًا بالملوك والسّاسة، ويحاول أن يجعل الغاية تبرر الوسيلة؛ فمن أجـلِ تحقيـق الهدف لا بـدّ من ابتغـاء كُلّ الطّـرق الممكنـة ويمكـن أن نجـدَ فـي الحديث النّبويّ الشّـريف (الحرب خدعة) تأكيدًا على هذا الجانب المَحمُـود في الثّقافة العربيّة فيما يخصّ الحيلـة والتّدبير الذي يحقّقُ مآربَ معينة. ويذكر الجاحظُ مُثنيًا «كان المنصور داهيًا أريبًا، مُصيبًا في رأيِه سديدًا وكان مُقدّمًا في علمِ الكلام ومُكثرا من كتاب الآثار»[١٢].

إنهـا الصّـورة التـي يتوجـب علـى كُلّ حاكمٍ الحـرصُ عليهـا، وهـي كما صـوَّرَ لنـا الجَاحظُ «الداهية، الأريب، المصيب في رأيه، السّديد، متابع لآثـار وكتب الأوائـل». فالحكم تدبير والسّيَاسَـة فنٌّ، أساسُـه العقل وقوامُه الفِطنـة، ويحتاجُ إلى التّدبيـر الـذي يجابه صعوبـاتٍ ومشـاكلَ قد لا تعالجُ بقوة الفرسـان وشَـجاعة الرّجال فحسب بل تحتاجُ إلى مـا تملكُ كلمة (تدبير) من التّفافٍ للوصول إلى الأهدافِ وتحقيق المآربِ بأسـاليبَ وطرقٍ غير مباشـرة. وهكذا احترمَ العقلُ العَربيُّ صنائـعَ الدّهـاء ونظرَ إلـى الأريبِ اللبيـبِ نظرةً مليئة بالإجلال ولا زالت مثل هذه النّظرة سـائدة فـي العُرف الاجتماعيّ إلى الآن، تَتّضحُ حين يُقيم الإنسانُ بقدرته على التّدبير، أي قدرته على تولّي أي مَوضُوع وإتمامه بشـكلٍ ناجح بالوسيلة التي يرتئيها لذا جعل منهـا كِتَابُ «لُطفِ التّدبير» كما أشـرنا الوظيفـة المركزية التـي تتضمن فحوى الكتاب. وقد اشـترطه المُؤَلّف ضمنَ ما اشـترطَ من نقاطٍ أساسـيّة للحاكم المثالـيّ بعد الصّفاتِ الأخلَاقيّة النّبيلة ثم المَعرِفَة. إذ جاءَ مثلا في باب ما تحتاج الملـوك إلى معرفته، وهـو الباب الذي

(١٠) البيـان والتبين الجاحظ، تحقيق عبد السّـلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ١٩٨٥،٣/٣٦٧.

(١١) لطف التدبير:ص١٣.

(١٢) البيان والتبيين:ص ٤.

وَجدنـا فيه تلخيصًا للفكـرةِ العَامّـة للكِتَاب في جملةٍ من الأقوال المأثورة والوصايا وحتى الأخبَار التي تُركّـز على النّقاطِ الثّـلاثِ التي أوضحناها. جاء في ذلـك الباب: «ارجعوا فيما اشـتَبَه عليكُم من التّدبير إلى الحُزمة المُجربين والبررة.. وترفَّعوا عن دنـاءةِ الهِمَّة وتَفرّغـوا لجلائـلِ التّدبير»[١٣]. وكذلـك قوله «يجب على الوالـي اللبيب الأريب أن يتخير الرّجال لصنيعته»[١٤].

يؤكد المُؤَلّف في كِتَاب «لُطفِ التّدبيرِ» أنّ واحداً من أهمّ أسباب التّدبير يَتمثلُ في الاستشارة وطلبِ النّصح، إذ أشار إليها الكتاب بقولهِ: «وقد قيل أن نصف عقلك مع المستشـار»[١٥]. «وكان أرسـطو طاليس أدَّبَ الاسـكندر، فلما نشأ واستفحلَ أمرهُ وكبرَ شأنُه وعَرَفَ من الحكمةِ ما عَرَفَ، كان شبه الوزير له، يعتمد عليه في الرّأي والمشورة»[١٦]. وهذا خبر ينقـل فكرة اعتماد الملـك اللبيب على ناصـح معـروف بالحكمـة وبعد ذلـك من لطف تدبير الملك لقد تحدث كِتَاب «لُطفِ التّدبيرِ» عن الملـوك والقـادة، والدّاهية (الخّير) هنـا إنَّمَا هو القائد الذي يهزمُ بحُسـنِ تدبيـره أيّ عدوٍّ طارئٍ أو مُعارضة تقـفُ في وجهه. وتَتَجسّـدُ الصّورة التي يرسمُها السّياقُ في كِتَاب «لُطفِ التّدبيرِ»في الشّـكل الأمثل الـذي يعتمدُ على الأسـسِ الثّلاثة، فالحاكمُ في الأساس هو رجلٌ صالح أي خيّر، فما نفعُ التّدبير وحسـنُه مع مَن يُـؤذي ويضرّ، وهذا الرّجـلُ الصّالـحُ لابدَّ من أنْ يَكـونَ مُمتلكا بعضَ القدراتِ الخاصّة التي عبَّر عنها الكِتاب بالمَعرِفَة أولا، والتّدبير ثانيًا. إنَّ المَعرِفَة هي التي تقودُ إلى التّدبيرِ حينَ تَعـرفُ عَدوَّك أكثرَ تكونُ قادرًا على تحديدِ نقاطِ ضعفِه، ثُمّ اختيار الطّريقة المناسبة للتّعامـل معـه، وحين تعـرف رعايـاكَ فأنتَ هنا تكـونُ قد حـدَّدتَ الوفـيَّ والمخلص مـن الغدّار والخائن.

نعـود ثانيـا إلى المناطق التـي صنفناها آنفا ولا زلنـا نتحدثُ عن الشّـكل الأوّل الـذي حَدَّد ما يَحتاج الملوك إلـى مَعرفتِه. ويُمكنُ أن نَعدّ الملكَ أو الحاكـمَ هو الدّاهية الذي يُفترضُ أن يمثلَ قيمَ الخيـر والنّبل، فهو وليُّ الأمرِ الذي تفرضُ طاعتُه على الرّعيةِ لذا سـيكونُ الأقدر حتمًا على تَجسيد قيم مَحمُودة مثل الخير والفروسـيّة والنّبل، على هذا فـإنّ الحَاكمَ سـيُنهي الصّـراع لصالحه لأنَّهُ يمتلـك جملـة مـن السّـمات التي تؤهلـه لفرض منطقه في النّهاية. والأخبَـار التي تقع تحت هذا الشّـكل تأخذ مسـاحة واسـعة من الكتـاب منها على سـبيل المثال: (حُكيَ أنَّ أبا الحَسنِ عليّ بن هشـام لما ولّاه المأمونُ أذربيجانَ شَـخَصَ إليها علـيٌّ وشَـخَصَ المأمونُ إلى بلاد الـرّوم، دبّ أبو إسحاق المُعتصم بالله عندَ المأمون وكانَ قد غلبَ عليه في إفسـادِ حالِ أبي الحَسـنِ عليّ بن هشام لمـا تَخوَّف من ميلِ أبي الحَسـنِ عليٍّ بنِ هشـام إلـى العبّاس. فكتبَ المأمونُ إلى عليٍّ كُتبًا غليظةً أنكرَهَا عليٌّ للسّـلطان. دالّة عليـهِ بموضعِهِ منهُ. فلم تزلْ الغلظةُ تَنمو بينَهما حتى فشَتْ في النّاسِ ولـم يُمكنْ المأمون عزلَ عليّ بن هشـام لأنَّهُ كانَ

(١٣) لطف التدبير: ص ٣.
(١٤) المصدر نفسُهُ، ص١٠.
(١٥) لطف التدبير، ص٣.
(١٦) المَصدرُ السّابِق، ص٣.

فــي بلادِ الرّوم، وعليٌّ في ناحيــةِ بابك، فلم يأمَنْه إنْ بــادَره بالعَزل. وبلغَهُ أنّ عليًّا قد أفسـدَ قلوبَ أصحابِــهِ وأهل عســكره بقطعِ أرزاقِهم والسّــفَهِ عليهــم والكبر، فوَجَّهَ المأمــونُ عَجيفا، وأمره أنْ يَصيرَ إلــى عليّ كالمُعاتِبِ له المُســتَصلحِ لقلبِه، وأنْ يُدبّ بالفســادِ عليه في عَسكرِه، وجعلَ عَطاءَ الجُنــد وعَرضهم إلــى عَجيف. (فدخــل عجيف) عَسكرَ عليّ. فاظهرَ لعليٍّ غايةَ التّعظيمِ واستَعتَبه لأميــرِ المؤمنيــن، فاعتــذرَ علــي وقــالَ لعجيف: أحسبُ الذي جئتَ لهُ غيرَ هذا، فاحذرْ على نفسِكَ، فإنّــي إنْ لدَغتُك بالمَراغة أبطــأتْ رُقيتُك من بلادِ الــرّوم. فتذلَّلَ عجيفٌ لعليّ وتَلقَّى قولَه بالتّواضعِ حتى سَــكَن. ثم دبَّ في أصحابِه بالفســاد، حتى إذا أحكَمَ عليهم الأيمانَ بالطاعةِ مع العَطاء، وعَلمَ سوءَ نِياتِهم لعليّ، وأعدَّ رؤساءَهم للفرصةِ، فخرجَ عليٌّ إلى بَعضِ مُتَنزَّهاتِه وجَمعَ عجيف الجُندَ فقرأ عليهــمْ كتابَ أميــر المؤمنين بعزلِ علــيّ. فقوبلَ بالسّــمعِ والطاعةِ لعجيف فبلغ الخَبَر عليا فرجع مبادرا. فوثب الجند عليه وعلى أخيه الحســن بن هشــام فدَفعُوهُما إلى عجيف، فأوثَقَهُما بالحَديد وحمَلهُما إلى المأمون فقتلهما بإذنه)[١٧].

ثمــة، إذن، غــدرٌ وخيانة تمثلَ في إنــكارِ (عليّ)، وهو الوالي الذي كَلَّفَــه الخَليفَةُ بتولّي أذربيجانَ، للسّــلطان (فلــمْ تــزلْ الغِلظةُ تنمــو بينَهما حتى فَشَــتْ فــي النّــاس) بمَعنَــى أنهــا عمليــةُ إعلانٍ للعِصيانِ على الخَليفَة، بكلِّ ما يُمثّلُه من قِيم فهو صاحــبُ الحــقِّ الوحيد في طاعــةِ الرّعية وفرضِ النّفوذ على البلدان والولايات. فالخَليفَة أو الحاكم فــي هــذا الخَبَر هــو الشّــكل الأمثــل للحاكم كما افترضه كِتَاب «لُطــفِ التّدبير» اعتمادًا على بنية ثقافيّــة متواترة قائمة علــى مجموعة من الأنظمة والعلامات المتداخلة التي تحيل على ســلوك دالّ فضــلاً عن كونِــه مُشــتَركًا بين أعضــاءِ الجَماعةِ ومُنسّــقا ومُنتظمًا (يخضعُ لقواعدَ وقوانين) هذا السّلوك الذي يؤيّد أنّ الغلبَةَ لا بدّ أن تكونَ حسب التّراث الثّقافي إلى ولي الأمر فهو صاحبُ الكلمة الحاســمةِ ولهُ الحــقُّ في مُصــادرةِ أيّــةِ أصواتٍ معارضــة أو حركات مُتمردة لاســيَّما وهو يمتلكُ من المَعرِفَــة والتّدبيرِ ما يُؤهّلُــه لاحتلالِ المَركز القِيَميّ المَحمُود فهو المُحســن الذي يَتحوّل عند المواجهةِ مع أشــكالِ الخيانةِ والغــدر إلى القائدِ اللبيــبِ الذي يمتلــكُ من القــدرةِ والدّهــاءِ القدرَ الكافي لحَسم المواجهة لصالحِه. .

تعتمــدُ مقولــة البَقــاءُ للأدهَى على اســتعارةٍ مجازيّة فــي الأســاس تَتَمثّل في شــريعةِ الغاب التي تحكمهــا قوانينُ واضحة تقــومُ على القوة، فالقويّ لــه الحقّ في البقاءِ والحيــاةِ بينما يكونُ الضّعيــفُ عرضــةً للهــلاكِ وفــي عالــمِ الحَيوان تكونُ المَقاييسُ هي القوّة الجسديّة والقدرة على الافتراس وهي مســألة طبيعيّــة لكائناتٍ لا تمتلكُ العقــلَ أو المَنطق. فإذا حوّلنا هــذه الحقيقةَ في عالم الغابِ إلى مجاز في حياةِ الإنســان ستَتَحوّل معَهــا معادلةُ البقاءِ. فبدلا من الاعتماد على القوّة والامكانات الجسديّة ستعتمدُ على العقلِ باعتباره الميزةَ الأهمّ للمخلوقِ العاقلِ الوحيدِ، فالدهاءُ هنا وسيلةُ المُحافظةِ على الحياةِ وعلى الامتيازاتِ التي

(١٧) لطف التدبير: نقص رقم الصفحة

تمنحُها الحيــاةُ لبعضِ النّاس. لكــنّ هذا التّلاقي بين عالمِ الغابة وحياةِ الإنســانِ ليس تلاقيًا قائمًا على الاستعارة المجازيّة فحسب، أنَّهُ يحتفظ مثل معظم الاســتعاراتِ بوجهِ شــبهٍ خفيّ الشّــبه بين العالمَين رغم تعارضهما، إذ الحياةُ ليســت سوى غابــةٍ عاقلة تتصــارعُ فيها المصالــحُ والغاياتُ، والإنســانُ الذي يريد البقاءَ يجبُ أنْ يَكونَ الأدهى والأكثرَ ذكاءً. ســواءٌ أكانَ هذا البقاء بايلوجيًّا، أي أن يســتمرَّ على قيد الحيــاة، أم كانَ بقاءَ مصالحَ وســيطرةٍ وحكــم. ومثلمــا تفتــرضُ الغابــةُ أنّ المخلوق أو الكائن القويّ إنَّمَا هو الذي يســتحقُّ البقاءَ وله الحقُّ في افتراسِ الضّعيفِ ومَن لا يملكُ مُقوّماتِ الحيــاةِ فالنظامُ هو الذي يَضمنُ حقوقَه تلك؛ ولا يمكــنُ الاعتراضُ على تمكّــن القويّ من الضّعيف في الغابة. فهكذا يجبُ أن تكونَ الأمورُ وفق قوانين الحياة. مثلُ هذه الفرضيّة يرشّــحُها السّــياق في كِتَاب «لُطفِ التّدبيرِ» لتحتلَّ ترتيبَ القيم أو الآيديولوجيا في أخبَار الكتاب.

والأدهى بالضّرورةِ هو صاحبُ الحقّ في التّمكّن مــن الذي لا يملــكُ مواهبَ في الــذكاء والحَصافة والحِكمــة، فهــي القوانيــنُ التي تَجترحُهــا حياةُ البشــر فالدَّاهيَة هنا مُســتحقٌّ للبقــاء، لأنَّهُ مالكٌ لمفاتيــحِ هــذا البقاء. فــإذا كان هــذا الدّاهيةُ هو بالضرورةِ الحاكمَ صاحبَ السّــلطة؛ فإنَّهُ بلا شكٍّ ســيصلُ إلى النّصر الــذي يريده لأنَّــهُ، على وفق القوانيــن- أو بالعــودةِ إلى مُصطلحِ التّســنين- الأقوى والأصلحُ للبَقاءِ والانتصار.

والحاكــمُ هو ملكُ (غابتِــه الصّغيرة) أو مملكتِه وهو ضمنَ هذا التّصور لابدَّ من أنْ يَكونَ المُنتصرَ لأنَّهُ الأقوى أو يَجبُ أنْ يَكونَ الأقوى بعقلِه ولطفِ تَدبيره. فضلًا عن كونِه مُمثلًا لعالمِ الخَير والقِيَم المَحمُــودة. فالداهيَة الخَيّر يَنتصرُ على الشّــرير بمَعنَــى المَلك (وليّ الأمر) مُمثلٌ لشــريعةِ الحكمِ يتمكنُ مــن أعدائِــه أو الخارجينَ عليــه وينتصرُ عليهم وهذا هو الصّحيح.

المصادر والمراجع

_ البيــان والتّبيــن، الجاحــظ، تحقيق عبد السّــلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ١٩٨٥.

_ خلاصاتٌ في السّياسةِ والفكر السِيَاسيّ، هادي العَلويّ، دار المَدَى للطِّبَاعةِ والنّشر، بغداد، ٢٠٠٤.

_ لُطــف التّدبيرِ، الخَطيبُ الإســكافيّ، حقَّقَــهُ وعلَّقَ عليه أحمد عبــد الباقــي، دار الكتــب العلميّة، بيــروت، لبنان، ١٩٦٤.

_ مَدخلٌ الى السّــيموطيقا، سيزا قاســم ونصر حامد أبو زيد، دار التّنوير للطِّباعةِ والنّشر، القاهرة، ١٩٨٦.

_ نقدُ الشّــرّ المَحض، مُطاع صفــدي، دار الانماء العَربيّ، بيروت، ٢٠٠١.